دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نماذج من التطرف الفكري
في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر

د. ميلود بلعالية

أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

نستمد أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري جذور تطرفها الفكري تجاه الجزائر من كتابات رجال الدين المتعصبين، وخاصةً لويس رين، والأب دان، فقد كان التعصب في نظرهم قوة من قوى الإيمان، فهم يحكمون على الإسلام وفق أفكار مسلمة لديهم، هذا دين عندهم خاطئ وكثير من المؤرخين يستولي عليه التفكير في قوة الجزائر والرغبة في ذكر كهوف اللصوص ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر. ولذلك يهدف موضوع الدراسة البحثية رصد نماذج من التطرف الفكري فيما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الجزائر انطلاقًا من مصادر أوروبية فقط، إذ في نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر يجب أن يدرس بصفة رئيسية بواسطة ما رواه قناصل ورحالة أوروبيون وبواسطة وثائق أرشيفية استعمارية. ومن هذا الهدف، فإن أهمية هذه الدراسة النقاشية تتناول طرح نظرة المؤرخين الفرنسيين في سياق أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري حول كتابة تاريخ الجزائر على اعتبار كون هذه النظرة موقفًا سياسيًا متطرفًا استخدم فيه المؤرخون الفرنسيون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. ويتصدر هذه النماذج بروسبير أونفونتان وألكسي دي طوكفيل في جرائم التنظير والممارسة العملية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر في بداية الاحتلال. انطلق اهتمام المؤرخين الفرنسين بالكتابة عن الجزائر من دوافع كثيرة منها: الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية التي حملت معها إلى الجزائر أدوات الغزو الفكري، ودافع السيطرة والاحتلال ودافع الفضول العلمي ودافع الدين بعد صراع بين القوى الأوروبية والدولة العثمانية. وربط المؤرخون الفرنسيون الاستعمار الروماني للجزائر بالاستعمار الفرنسي بقصد تشويه تاريخ الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل صاحب أطروحة: "الجزائر جزء اقتطع تعسفا من إفريقيا الشمالية"، ويردد المؤرخ وليم مارسي صدى هذه الأطروحة مشيرًا إلى الفتح العربي الإسلامي وإلى العهد التركي: "...في كلتا الحالتين، غزا المشرق هذا الجزء من المغرب".

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٧	مارس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٨	أبريل	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

لويس رين؛ الأب دان؛ التعصب؛ التنظير الاستعماري؛ ستفان غزيل؛ وليم مارسي؛ أرض فراغ

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231574

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلعالية ميلود. "نماذج من التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١١٦ – ١٢٥.

Corresponding author: m.belalia@univ-chlef.dz

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشرت هذه الدراسة في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

كتب المؤرخون الفرنسيون أن تاريخ الجزائر في العهد العثماني مكتوب من مصادر أوروبية، وفي نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر من العهد العثماني إلى بداية الاحتلال، يجب أن يدرس من خلال ما رواه رجال الدين المسيحيون والقناصل الأوروبيون اعتمادًا على وثائقهم، فالجزائر في كتاباتهم هي أرض فراغ انتقلت من غاز قديم إلى غاز جديد، وصارت من ممتلكات الدولة العثمانية بعد صراعها مع إسبانيا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فما هي جذور التطرف الفكري المؤسس لأطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر؟ وما هي جرائم التنظير للطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري في الجزائر؟ وما هي أهم الأمثلة من التطرف الفكري لتشويه الجزائر في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري؟

يهدف موضوع الدراسة البحثية الموسومة بـ: نماذج من التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر، إلى رصد ما كتبه مؤرخو مدرسة التاريخ الاستعماري عن الجزائر انطلاقا من مصادر أوروبية، وخاصةً الفرنسية، إذ حسب زعم بعضهم أن تاريخ الجزائر الحديث يجب أن يدرس من مضان روايات القناصل المعتمدين في الجزائر العاصمة قبل الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠، والرحالة الأوروبيين والأرشيفات القوى البحرية الأوروبية.

تكمن دواعي البحث في الموضوع الرغبة تتبع الخلفية التاريخية لتناول مؤرخي مدرسة التاريخ الاستعماري قضايا التاريخ الجزائري، وكشف الإشكالات التي ركزوا عليها دون غيرها في التأريخ للجزائر قبل سنة ١٨٣٠، وكشف العلاقة بين المؤرخون العسكريون وسلطات الاحتلال وامتدادات هذه العلاقة إلى المؤرخين المتخصصين المنظرين لاستعمار العقول بهد احتلال الحقول.

وتعزى أهميته إلى رصد الكتابات التاريخية التي كانت أساس تبرير انفراد فرنسا في تبرير احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، والوقوف على الدور المنوط برواد الكتابة على تاريخ الجزائر سواء العسكريين غير المتخصصين أو المؤرخين المتخصصين في بداية الاحتلال، ومعرفة مدى التشويه الذي أصاب تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر من الاستنتاجات التي ثبتها المؤرخون الفرنسيون في أطاريحهم حول الجزائر.

أما منهج البحث في هذا الموضوع فقد اتبعنا المنهج الوصفي في جمع مادته التاريخية من مضانها والمنهج التحليلي في نقد المعلومات التي وظفها مؤرخو مدرسة التاريخ الاستعماري في تبرير أطاريح هذه المدرسة في كتابة تاريخ الجزائر، والرد على ما جاء فيها من نماذج للتطرف الفكري بقصد تشويه تاريخ الجزائر في الفترة القديمة والعربية الإسلامية، وخاصة تاريخ الجزائر الحديث حتى بداية الاحتلال الفرنسي والتي قد تجانب الحقيقة التاريخية.

أولاً: جذور التطرف الفكري المؤسس لأطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر

تستمد أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري جذور تطرفها الفكري تجاه الجزائر من كتابات رجال الدين المتعصبين، وخاصةً لويس رين، والأب دان، فقد كان التعصب في نظرهم قوة من قوى الإيمان، من جهة، ومن جهة ثانية، من مدونات وتقارير القناصل الأوروبيين المعتمدين في مدن إيالة الجزائر في العهد العثماني، فرجال الدين والقناصل يحكمون على الإسلام وفق أفكار مسلمة لديهم، هذا دين عندهم خاطئ وكثير من المؤرخين يستولي عليه التفكير في قوة الجزائر، والرغبة في ذكر كهوف اللصوص ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر. أصبح التركي هو العدو للغزاة الإسبان الذين احتلوا الثغور البحرية الجزائرية الممتدة من المرسى الكبير حتى جيجل في الفترة (١٥٠٥-١٥٠٩)، ولكن دخول العثمانيين ساعد الجزائريين على مقاومة الغزو الإسباني وصارت الجزائر منذ سنة ١٥١٨، إيالة عثمانية تسمى دار السلطان، لها حدود مع تونس والمغرب وأسطول حربي في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط لحماية الثغور البحرية من تزايد الاعتداءات القوى الأوروبية ضد الجزائر.

حيرت الفترة العثمانية في الجزائر القوى الأوروبية، فأثارت اهتمامها، وكانت من بين الفترات التي أسالت كثيرًا من الحبر في إسبانيا وفرنسا والمدن الإيطالية. فقد أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والدبلوماسية وافتداء الأسرى وحب المغامرة فرصة تعرف الأوروبيين على الجزائر والتأليف في تاريخها وتدوين الوقائع التي عاصروها. ولذلك كانت الآداب والعلوم الإنسانية، وخاصة المصادر الفرنسية كثيرة وموضوعاتها متنوعة[1].

إن المؤلفات الأجنبية على الرغم من الأحكام المسبقة الخطيرة التي تشتمل عليها، لا غنى لتاريخ الجزائر عنها، لندرة المصادر العربية فيما يخص هذه الفترة التاريخية[2]. فالمصادر العثمانية التي يرجى منها أن تساعد المؤرخ تقف عند القرن الثامن عشر فقط، لا تلقي محتوياتها ضوء جديدًا على وقائع

وحياة الجزائريين[٣]. ويعزى ذلك إلى أن مؤرخي التاريخ الحديث يحملون طابع البيئة التي عاشوا فيها التي تميزت بالصراع الديني بين العثمانيين والأوروبيين[٤].

وفي ظل الفراغ في الكتابات التاريخية باللغة العربية في تاريخ الجزائر الحديث في الفترة العثمانية، جاءت الكتابات التاريخية باللغة الفرنسية لملء هذا الفراغ، وحملت الدراسات التاريخية للمؤرخين الفرنسيين في الظاهر مواصفات البحث التاريخي مثل الضبط والاتقان والتقسيم الدقيق للفترات التاريخية التي جاءت في مؤلفات دي غرامون، ومرسي وماسون وغوتي والتي ستكون لها آثار على الكتابات التاريخية باللغة العربية. وأقام كثير من الباحثين في مدينة الجزائر أو قاموا برحلات في الحواضر الجزائرية أو خدموا في قصور الدايات وفي قصور البايات[٥]. ولذلك جاءت ملاحظاتهم مباشرة ومعلوماتهم التي ضمنوها مؤلفاتهم تعتبر ثمينة، والدليل على ذلك اعتماد الباحثين الفرنسيين بعد سنة ١٨٣٠ على ترجمة تقارير رسمية وتوظيف كثير من الوثائق الارشيفية[٦].

ولكن هذه المواصفات الجيدة في البحث التاريخي لا يمكن أن تغطي الجانب السلبي في نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في العهد العثماني، لأن هذا الجانب السلبي يشمل غالبية هذه المؤلفات، ويعزى ذلك إلى أن أهمية هذه المصادر الفرنسية بالنسبة لتاريخ الجزائر في العهد العثماني هي بعيدة عن إجماع الباحثين التاريخيين الموضوعيين. فقد كتب لويس رين: "إن الوثائق الجيدة التي تخص العهد التركي قليلة، وإذا كان ما ملكه منها هو صادق ومثير للفضول ومفيد فلا يكاد يشتمل على شيء من تاريخ العرب والبربر الذين عاشوا خارج الأوليغارشية أي حكم المستغلين المسيطرين على البلاد"[٧].

عندما نبحث في الوثائق، وخاصة المكتوبة باللغة الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نلاحظ أن الاهتمام فيها اقتصر على العهد العثماني على القرصنة وعلى عمليات اللصوصية في عرض البحر، وعلى استعباد النصارى وعلى إقامة الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر، والتركيز على إبراز بؤسهم وشقائهم وعلى أوجاعهم، وخاصة على افتداء الأسرى وعلى نشاط جمعيات الافتداء وعلى التجارة[٨]، وعلى رجال الدين المبشرين وعلى عدم ثبات أصلهم وعلى دور أباء جمعية الثالوث المقدس وآباء جمعية القديس لازار والكاردينال لافيجري"[٩].

أما العنوان الذي اختاره الأب دان لكتابه تاريخ بلاد البربر وقراصنتها، ومملكة ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس فله مغزى، حيث يبحث عن حكوماتهم وعن أخلاقهم وقساوتهم وعن لصوصيتهم وأسحارهم وعن كثير من خصائصهم الأخرى الملفتة للنظر"[١٠]. ذلك هو مؤلف الأب دان المتخصص في علم اللاهوت ورئيس دير الثالوث المقدس والذي أقام في مدينة الجزائر في الفترة (١٦٣٤-١٦٣٥)، فركز الجزء الكبير من كتابه على طريقة تسليح القرصنة وعلى خصائص المرتدين وهي الصفة التي أطلقها على الأعلاج بعد اعتناقهم الإسلام في الجزائر، وعلى العقوبات التي يفرضها الأتراك المتوحشون على النصارى الذين يستعبدونهم، ويقتصر ما بقي من تأليفه على الحديث عن جمعية الثالوث المقدس"[١١].

ولكن الأب دان تجاهل في مؤلفه صفة الموضوعية في الكتابة التاريخية، ولذلك جاء التفسير فيها غالبا مغرضا متحاملا والحذف من النص مقصود والمعلومات تجانب الحقيقة التاريخية. لأن هؤلاء الباحثين الفرنسيين المنتمين إلى مختلف الجمعيات المسيحية ألفوا كتبا دعائية، وكانوا يستهدفون بها ترغيب أتباعهم في العطف على الأسرى لجمع موارد مالية في شكل تبرعات للكنيسة الكاثوليكية المتعصبة. فالمبالغة والقسوة والرعب هي الأشياء التي أوردوها في مؤلفاتهم للتأثير على الرعايا المسيحيين حتى تلين قلوبهم. وكان نشر هذه المؤلفات يسمح بنشر هذه المعلومات على نطاق واسع في أوروبا، وخاصة فرنسا بهدف تغذية الحقد على المسلمين، وليس لترضية الفضول العلمي المتعطش للمعرفة التاريخية، ويقع التأثر بأخبار العقوبات التي يفرضها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على بلاد المسلمين[١٢].

أما القناصل الأوروبيون الذين كانوا معتمدين في مدن إيالة الجزائر، فقد سجلوا ذكرياتهم ودونوا الأحداث التاريخية ورووا أشياء لها صلة بالجزائر. فكانوا شهودا معاصرين لفترة اعتمادهم في الجزائر في العهد العثماني، وكانوا بصفة عامة على خبرة بمشاكل كانوا طرفًا في إثارتها، ويبدو للوهلة الأولى أن مراسلاتهم وتقاريرهم كانت ذخيرة لا تنفد من المعلومات للباحثين في تاريخ الجزائر العثماني. ولكن كان تأييدهم على العموم للديات في إيالة الجزائر ضعيفًا وفاترًا، من جهة، ومن جهة ثانية، فقد انحصرت إقامة بعض القناصل على مدينة سكناهم وغالبا في مدينة الجزائر، وكانوا لا يسافرون خارج العاصمة، ولذلك لم يعيروا اهتمامًا بالحياة الاجتماعية في الريف الجزائري. وفي الجزائر العاصمة بالذات كان المجتمع الإسلامي بعيدًا عن اهتمامهم، فكانوا يجهلون حياة الناس في قصبة مدينة الجزائر وفي حواضر دار السلطان، ويعزى هذا التجاهل إلى أن القناصل غالبا ما كانوا يشاطرون آراء رعاياهم في الاقتناع

بالآراء المسبقة، وفي نظرهم كان سكان شمال إفريقيا منبعا للمشاكل، مخادعين، كسالى جشعين وناكرين للجميل[١٣].

ثانيًا: جرائم التنظير للطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري في الجزائر

انطلق الفرنسيون في كتابتهم عن تاريخ الجزائر من معطيات أهما: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم، وهذه المعطيات هي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين. ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم. وجاءت نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في سياق أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري لكتابة تاريخ الجزائر، على اعتبار كون هذه النظرة موقفا سياسيا متطرفا استخدم فيه المؤرخون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. واستفادوا من أفكار علماء الاجتماع في التنظير لجرائم الجيش الفرنسي في الجزائر بداية الاحتلال. وانطلق اهتمام المؤرخين الفرنسيين بالكتابة عن الجزائر من دوافع كثيرة منها: الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية التي حملت معها إلى الجزائر أدوات الغزو الفكري، ودافع السيطرة والاحتلال ودافع الفضول العلمي ودافع الدين بعد صراع بين القوى البحرية الأوروبية والدولة العثمانية.

تميزت الكتابات التاريخية الفرنسية بعد سقوط مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠ بنزعة جديدة ذات قيم متفاوتة، فإذا كان المؤرخون يعتمدون في الكتابة عن الفترة الرومانية في الجزائر على المصادر المتخصصة، فقد راجعوا عن تاريخ العصور القديمة نفس النصوص لمؤلفين إغريق ورومان، وإن استثمروا فيما يتعلق بالفترة الاستعمارية الفرنسية تقارير رسمية ووثائق صادرة عن وزارة الحربية الفرنسية، ولكنهم حينما اهتموا بدراسة الفترة الإسلامية في الجزائر، ادعوا أنهم واجهوا صعوبات في فهم النصوص العربية في التاريخ والجغرافيا، ولذلك حكموا عليها بأنها تكاد تكون غير دقيقة وتترك مجالا واسعا للافتراض، بل وظهرت لهم أسماء الأسر الجزائرية العربية منفرة والأحداث عبارة عن تحولات مستمرة لتاريخ يتألف ويتفكك باستمرار"[١٤]. وظل عدد المؤرخين الفرنسيين في بداية الاحتلال قليلا، وخاصة الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية دون صعوبات، ويفهمون قواعدها وصيغ بلاغتها وصور تراكيبها، وإلى جانب مؤلفات جديرة بالدراسة توجد كتب تستهدف التعميم الشعبي ولا صلة لها بالتاريخ العلمي، بل كانت الغاية من تأليفها كسب الإعجاب، أو كانت كتبا لتاريخ موجز تحشر الأحداث التاريخية كلها في تاريخ الجزائر في أقل من مائتي صفحة[١٥]، أو كانت نوعا من الفهارس تسرد الأحداث دون تفسير[١٦]. فكان تاريخ الجزائر في العهد العثماني عبارة عن نظرة موجزة ينتقل منها المؤرخ الفرنسي بسرعة إلى احتلال مدينة الجزائر[١٧].

وهكذا ابتليت الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي بجرائم التنظير التي قامت عليها السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر للقضاء على المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، ويتصدر منظري التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري في الجزائر بروسبير أوفونتان (١٧٩٦-١٨٦٤) وألكسيس دي طوكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩)، وتعزى هذه الصدارة في التطرف الفكري إلى دعوة هذين المنظرين سلطات الاحتلال الفرنسي إلى ضرورة تنفيذ أفكارهما لإبادة الشعب الجزائري في بداية الاحتلال، ومن هذه الجرائم:

٢/١-جريمة التنظير لدمج الجزائر بفرنسا

انتهت فترة التردد الفرنسي في الجزئر (١٨٣٠-١٨٣٤)، بصدور قرار فرنسا المؤرخ في ٢٢ جويلية ١٨٣٤ المتضمن الاحتفاظ بالجزائر، ولذلك لم يتوان أوفونتان ودي طوكفيل في التنظير لجريمة دمج الجزائر بفرنسا، فقد كتب دي طوكفيل سنة ١٨٤١: "لا اعتقد أنه بإمكان فرنسا التفكير جديا في مغادرة الجزائر، سيكون تركها الجزائر في أعين العالم إعلانًا أكيدًا عن انحدارها...إذا تراجعت إزاءها فستظهر في أعين العالم، وقد انحنت أمام عجزها واستسلمت لقلة شجاعتها"[١٨]. أما أونفونتان، فقد أفصح عن رأيه في التنظير لجريمة دمج الجزائر بفرنسا، فقد رفض أي تراجع من قبل فرنسا عن احتلال الجزائر، من جهة، ومن جهة ثانية، فقد انتقد كل الأصوات المنادية للتخلي عنها. ولذلك نادى بالاحتفاظ بالجزائر والعمل على تنفيذ أسس الاستعمار الاستيطاني في الجزائر[١٩]. واعتبر أونفونتان الجزائر من أهم الممتلكات الفرنسية في إفريقيا، فكتب: "إن ممتلكاتنا في الجزائر ذات أهمية، فالسيطرة عليها هي بالنسبة لنا شرعية ولا يمكن التخلي عنها، بل ولا يمكن حتى السماح بفتح النقاش سواء بفرنسا أو هنا في الجزائر عن امكانية الاحتفاظ بمقاطعاتنا الإفريقية، والتي هي لنا على قدم المساواة مع الألزاس واللورين"[٢٠].

يبدو أن أونفونتان منظر جريمة دمج الجزائر بفرنسا، قد ذهب بعيدا فيما كتبه في مؤلفه، بعد أن لاحظ اتساع دائرة

النقاش على مستوى المؤسسات والصحافة الفرنسية، فدعا إلى وقف النقاش والالتزام بمبدأ الاحتفاظ بالجزائر، واعتبر التخلي عنها وصمة عار في جبين المسيحية أمام كل ما قام به الإخوة بربروس في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. كما ربط هذا المنظر الاستعماري الاحتفاظ بالجزائر بالتكاليف الباهظة التي نجمت عن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠. ولذلك حتى يكون مبررا لجريمة نهب الخزينة والاستيلاء على ممتلكات الجزائريين. وإذا كان أونفونتان، قد ساوى بين مكانة الجزائر والألزاس واللورين نظرًا لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بالنسبة لفرنسا، فإن تقدير مكانة الجزائر عند دي طوكفيل تجعله أكثر من ذلك، حين كتب: "الذين يقولون إننا نشتري المزايا التي يمكن أن توفرها لنا الجزائر بتضحيات كبيرة صادقون، ولكنهم مخطئون عندما يقلصون إلى لا شيء تقريبا هذه المزايا. الحقيقة هي أنه لو استطعنا الوصول إلى السيطرة بإحكام على ساحل إفريقيا هذا وامتلكناه بيسر، فإن تأثيرنا في الشؤون العامة للعالم سيكون أكثر قوة وانتشار"[٢١].

وهكذا كانت جريمة التنظير لدمج الجزائر بفرنسا أساسا للتشريع الاستعماري الفرنسي الذي أنهى فترة التردد فصدر المرسوم الملكي المؤرخ في ٢٢ جويلية ١٨٣٤ المتضمن إلحاق الجزائر بفرنسا، وأكده دستور الجمهورية الثانية سنة ١٨٤٨ الذي اعتبر الجزائر جزءا من فرنسا.

٢/٢-جريمة التنظير لاحتواء العائلات الكبيرة

واجهت فرنسا الاستعمارية منذ سنة ١٨٣٠ رد الفعل الوطني ضد الاحتلال الفرنسي، ولكنها عملت على احتواء العائلات الكبيرة في مناطق المقاومة الشعبية، فقربت بعض أعيان هذه العائلات الكبيرة وأغدقت عليهم الامتيازات الضريبية والاجتماعية بقصد التخلي عن نصرة قادة المقاومة الوطنية، وخاصة الأمير عبد القادر، أو تحطيم العائلات الكبيرة التي رفضت التعاون مع سلطات الاحتلال الفرنسي، فقد كتب دي طوكفيل: "كان الأتراك قد أبعدوا الارستقراطية الدينية العربية عن استعمال السلاح وإدارة الشؤون العامة، وبسرعة رأيناها بعد القضاء عليها تعود كما كانت محاربة وحاكمة. الأثر الأكثر سرعة والأكيد لغزونا هو إعادة التواجد السياسي للشيوخ وكانوا قد فقدوه. استعادوا سيف محمد لمحاربة الكفار، ولم يتأخروا في استعماله لحكم مواطنيهم: هذا أمر كبير ينبغي أن يلفت نظر كل من ينشغل بالجزائر. وتركنا أرستقراطية العرب تولد من جديد، ولم يبق لنا إلا أن نستغلها"[٢٢]. وزاد هذا المنظر لجريمة احتواء العائلات الكبيرة، حين كتب: "لن نكون آمنين إطلاقا، ولن يكون لنا أي مستقبل على الساحل إن لم نصل إلى فرض سلطتنا في الداخل كيفما كان الحال، أو على الأقل منع العشائر المختلفة التي تسكنه من الاجتماع تحت سلطة قائد واحد"[٢٣].

وجدت كتابات دي طوكفيل التنظيرية اهتماما من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي في بداية الاحتلال للالتفاف على الصعوبات التي اعترضت تنفيذ مشروع احتواء العائلات الكبيرة من الحضر في مدينة الجزائر وريفها، ثم التوسع الاستعماري في التيطري ووهران وعنابة وقسنطينة، وأدت السياسة الاستعمارية الفرنسية على أساس أفكار دي طوكفيل إلى انعكاسات اجتماعية خطيرة على المجتمع الجزائري في المدن والريف، ومنها تفكيك البنية الاجتماعية للعائلات الجزائرية الكبيرة، ومصادرة أملاكها ونفي أعيانها وشيوخها، وتهجير أفرادها نحو المناطق النائية في البلاد، وتقريب عائلات جزائرية تدين بالولاء المطلق للإدارة الاستعمارية لتكون عينا للاستعمار الفرنسي ضد الجزائريين، فقد أقدمت سلطات الاحتلال الفرنسي على طرد الأتراك والحضر من مدينة الجزائر، وجلبت البرانية من زواوة وميزاب ليكونوا موظفين وتجارا في قصبة مدينة الجزائر، وأبعدت العلماء ليحل محلهم معلمون فرنسيون لتعليم اللغة الفرنسية في الكتاتيب والمسجد الكبير بالعاصمة[٢٤]. ومن الانعكاسات الاجتماعية الخطيرة على العائلات الجزائرية الكبيرة، ما أصابها من تدهور مكانتها الاقتصادية ومعاناتها من مظاهر الفقر والبؤس الاجتماعي بعد سنة ١٨٣٠، ومن هذه العائلات يحيى آغا، الشيخ مصطفى بن الكبابطي، الشيخ بن العنابي، حمدان بن عثمان خوجة[٢٥]. فضلا عن تدهور المستوى الاقتصادي والاجتماعي لأعيان بعض العائلات نتيجة الاضطهاد الذي سلطته فرنسا الاستعمارية ضد العائلات الجزائرية التي رفضت الواقع الجديد.

٣/٢-جريمة التنظير لتكثير العنصري الفرنسي في الجزائر

واجهت سلطات الاحتلال الفرنسي في بداية الاحتلال صعوبات تتعلق بالهجرة الأوروبية إلى الجزائر، والسبب في ذلك عدم تحمس الفرنسيين للهجرة، ولذلك أوعزت الحكومة الفرنسية إلى الكاتب الرومانسي ألكسندر دوماس لكتابة رواية دعائية لاستغلالها في الإشهار للهجرة إلى مستعمرة الجزائر، فحمل عنوان كتابه "إفريقيا" للدلالة على اختراق المجهول، وما سيكسبه المهاجرون المغامرون من مكاسب اقتصادية ومكانة اجتماعية، وتسهيلات لبناء قرى استيطانية وتجهيزها ببنى تحتية من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي في الجزائر. واستغل

منظر الاستعمار الرسمي في الجزائر أكسيس دي طوكفيل حاجة فرنسا الاستعمارية إلى أفكار تقوم عليها سياسة الاستيطان لتكثير العنصر الفرنسي في المجتمع الأوروبي في الجزائر، فكتب: "ينبغي لنا أن نطرح على أنفسنا سؤالا أولا: هل يجب مباشرة الاستيطان قبل إكمال السيطرة ونهاية الحرب؟ لن أتردد لحظة في الإجابة: نعم. لا أحد بإمكانه القول متى ستنتهي الحرب، انتظار نهايتها يعني التأجيل اللامحدود للأمر الأساسي. وقلت وأكرر أنه ينبغي أن نجعل الاستيطان والحرب يسيران معا إذا كان ذلك ممكنا"[٢٦]. أما أونفونتان، فقد تميز كتاباته بتشجيع فرنسا الاستعمارية على تنظيم الهجرة الأوروبية وتوسيعها إلى كل فئات المجتمع الأوروبي، ومما كتبه: "يجب أن تشمل الهجرة الأوروبية الفلاحين والتجار والصناعيين ورجال العلم والفن من الرجال والنساء"[٢٧].

يبدو أن دي طوكفيل وأونفونتان، اشتركا في التنظير لجريمة تكثير العنصر الأوروبي بقصد دمج الجزائر بفرنسا عن طريق الفرنسة، وهذه الجريمة ساعدت فرنسا الاستعمارية على منح الاستقلال المالي والإداري للأقلية الأوروبية في الجزائر، فتحول المهاجرون الأوروبيون بفعل التسلط الاستعماري من حالة فئة شذاذ الآفاق الدخلاء على المجتمع الجزائري العربي المسلم، إلى فئة الأسياد بيدهم الأملاك الزراعية الكبيرة والمصانع والبنوك والتحكم في الشؤون العامة للجزائريين. ومن هؤلاء كبير الكولون السويسري هنري بورجو الذي استولى على مساحات واسعة في سهل متيجة بمساعدة فرنسا سنة ١٨٤٣، وحولها إلى مزارع الكروم المنتجة للخمور حتى عرف بملك العنب.

وهكذا كانت كتابات منظري جريمة الاستعمار الاستيطاني في الجزائر القاعدة التي عملت بمقتضاها الإدارة العسكرية والمدنية للاحتلال الفرنسي على دمج الجزائر بفرنسا، ومنها: توسيع حرب الإبادة ضد الجزائريين، وإقامة المركز العسكرية في المدن والأرياف والاستعانة بالمكاتب العربية للترجمة لمراقبة حركة الجزائريين، ونقل المهاجرين الأوروبيين وتقديم التسهيلات البنكية للاستغلال الأراضي الجزائرية بعد مصادرتها وإقامة القرى الاستيطانية فيها، وتعميم تدريس اللغة الفرنسية في المدارس التي يكثر بها السكان الجزائريون للتمكين من جريمة الإدماج، وتطبيق القانون المدني الفرنسي في الأحوال الشخصية على العائلات الجزائرية في المدن والأرياف، والتضييق على المحاكم الشرعية الإسلامية في الأحوال الشخصية (عقود الزواج والميراث)، ومحاولة عزل الجزائر عن محيطها الإسلامي بدعوى اهتمام فرنسا بالتراث الجزائري، وإقامة المدارس الفرنكو إسلامية[٢٨].

٤/٢-جريمة التنظير لحرب الإبادة في الجزائر

المعروف تاريخيا أن ألكسيس دي طوكفيل عاش في الولايات المتحدة الأمريكية، فأعجب بسياسة التطهير العرقي التي شنتها الإدارة الأمريكية ضد الهنود الحمر، وهم السكان الأصليون ضمن إطار تعمير الغرب الأمريكي، ولذلك استعجل أمره في تقديم خدماته الفكرية لفرنسا الاستعمارية في بداية الاحتلال، بقصد القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، فكان دي طوكفيل يقدم استشارتاه للجنرال بيجو في تطبيق الحرب الشاملة ضد الجزائريين لعزلهم عن المقاومة، وترهيبهم والتضييق الاقتصادي عليهم بقصد التخلي عن نصرة الأمير، فكتب: "لن نقضي على عبد القادر، إلا بجعل حياة القبائل المنضوية تحت لوائه لا تطاق، فتنفض عنه، وهذه حقيقة بديهية ينبغي التسليم بها أو ترك هذا الأمر. بالنسبة لي اعتقد أنه ينبغي اللجوء إلى كل الوسائل التي بإمكانها تدمير القبائل، لا استثني تلك التي لا تقبلها الإنسانية أو قانون الأمم"[٢٩].

وهكذا منحت فرنسا الاستعمارية لجنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر بمختلف أصنافه سلطات واسعة لارتكاب جرائم في حق الجزائريين في ظروف استثنائية، وخاصة فرض حالة الحصار وقانون الأهالي البغيض والمحاكم الرادعة على الجزائريين، ومن هذه الجرائم القتل الجماعي لأبناء القبائل الجزائرية، وإبادة بعضها عن بكرة أبيها، والتهجير القسري، والاضطهاد والقمع المرعب للرافضين للاحتلال، والميز العنصري بين الجزائريين والأوروبيين، وجرائم التعذيب، ومصادرة الأراضي، وتفكيك ملكية العقارية للعائلات الجزائرية الكبيرة، وإرهاق كاهل الجزائريين بالضرائب غير القانونية، ومحاولة التنصير، ومحاربة اللغة العربية، وحرق محتويات الخزانات الخاصة ونهب المخطوطات، وتشجيع الدراسات التاريخية والاستشراقية لتشويه تاريخ الجزائر، وتمجيد الاستعمار الروماني في الجزائر، وتجاهل التاريخ الإسلامي في الجزائر من الفتح حتى العهد الثماني.

ثالثًا: أمثلة من التطرف الفكري لتشويه الجزائر في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري

اتجهت نظرة المؤرخين الفرنسيين في بداية الاحتلال إلى تشويه الحقيقة التاريخية المتصلة بتاريخ الجزائر، فاستندت

الكتابات التاريخية الفرنسية التي تناولت تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

١/٣-معظم الكتابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر صدرت بعد الاحتلال سنة ١٨٣٠

صدرت كثير من الكتابات التاريخية الفرنسية بغرض خدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل كتب في مقدمة كتابه بعنوان تاريخ الجزائر ومؤرخوها: "يسطر التاريخ لنا واجباتنا أيضا، وهي تتمثل في إرادتنا المصممة على أن نكون أسيادا في كل مكان وإلى الأبد، وفي ضرورة إقامة إعمار يستند إلى إسكان أوروبي قوي في الريف، كما يتمثل في ضرورة تقريب السكان منا، رغبة وأملا في تحقيق انصهار على مدى قريب وبعيد، إن هذا التاريخ إذن لا يعتبر في إفريقيا هو أقل العلوم جدوى"[٣٠]. فالمؤرخ ستيفان غزيل الذي يعتبر من مؤسسي مدرسة التاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر، يفصح في مقدمة كتابه عن إخضاع التاريخ لمتطلبات الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويتأكد وجود هذا التوجه المنهجي عند ستيفان غزيل من خلال تحليل التعبير الأخير من الفقرة المقتبسة من كتابه، فهو قد أحجم عن مناقشة الرأي القائل بأن "التاريخ هو أقل العلوم جدوى"، من حيث هو، واقتصر على مناقشته فيما يتعلق بتطبيق هذا الرأي على تاريخ المغرب العربي، إنه واضح في تحميل التاريخ مسؤولية محددة ذات علاقة مباشرة بخدمة الاستعمار، والمنطق الذي يتحكم في هذا التوجه، هو منطق تبرير الاستعمار، لأن كشف الستار عن حقيقة تاريخ الجزائر والمغرب العربي، يعني نسف إحدى الأسس المعنوية الرئيسية التي كان يستند إليها الاستعمار الفرنسي[٣١].

كان الاستعمار الفرنسي منذ سنة ١٨٣٠، في حاجة إلى القول بعدم قابلية الجزائر لأن تشكل أمة، مثلما كان في حاجة إلى إنكار أي وجود سابق للكيان الدولي للجزائر. ولكنه كان فقط في حاجة لذلك، كي يقر هذه الفكرة، عند المستوطنين الأوروبيين حتى يكونوا أشد اطمئنانا إلى وجودهم في الجزائر، وأكثر ثقة في مستقبلهم في هذه المستعمرة الاستيطانية، وكان في حاجة إلى ذلك أيضًا كي يثير الشك عند الجزائريين. فإنكار أي وجود للكيان الدولي للجزائر يستهدف إلى تحقيق هذا الغرض المزدوج: ضمان تكوين فكري وإيديولوجي معين لدى المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، وزعزعة المعلومات التاريخية عند الجزائريين وتشكيكهم في تاريخهم[٣٢].

اكتسبت عملية تشكيك الجزائريين في تاريخهم طابعا خطيرا، فزيادة عن تحريف معلومات الكتب المدرسية التي تتصل بتاريخ الجزائر بصفة خاصة، وتاريخ العرب والمسلمين بصفة عامة، كان المعلمون الفرنسيون يروجون خرافات وهمية، تستهدف دفع الطفل الجزائري إلى كره تاريخه وتهيئته نفسيا لأن يتقبل الاندماج في المشروع الاستعماري الفرنسي، ويقبل به قضاء وقدرا لا خلاص منه. وسمع الكثير من الجزائريين في المدارس الفرنسية في الجزائر تلك الصورة التاريخية النمطية التي تقول: إن سكان مدينة الجزائر باعوا مدينتهم سنة ١٨٣٠ مقابل قصعة زلابية اعطاها لهم الفرنسيون. وكان الكتاب المدرسي الذي يحتوي على هذه الخرافة، مرفقا برسوم توضيحية تبين عددا من الجزائريين تحلقوا حول قصعة زلابية[٣٣].

وهكذا، فإن نماذج كثيرة من هذه الخرافات، تصبح مع طول الزمن حقيقة مسلما بها في أوساط المستوطنين الأوروبيين، وخاصة إذا ما عرف المستوى الثقافي السطحي الذي كان يطبع غالبية فئات الكولون.

٢/٣-دور الحكم العسكري في وضع المادة التاريخية لتبرير الاستعمار الفرنسي

كان ضباط الجيش الفرنسي ومتصرفو الإدارة الفرنسية رواد وضع المادة التاريخية لكتابة تاريخ الجزائر في الأدبيات الفرنسية، وفي ذلك ما لا يخفى من تحيز يتنافى مع الموضوعية. فالعسكري أو الإداري في النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر يعتبر كتاباته امتدادا لعمله في الميدان، وعمله الأساسي هو الحرب ضد الجزائر وضد الأمة الجزائرية. يضاف إلى ذلك أن الفرنسيين الذين خدموا في الإدارة الاستعمارية للجزائر، نظروا إلى تاريخ الجزائر من وجهة النظر الفرنسية، فكانت كتاباتهم في الحقيقة تأريخا للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولم تكن تاريخا للجزائر. ورغم أن بعض المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا بالبحث تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ولكن هذا التناول كان لا يخلو من الملاحظات التالية:

- محاولة تشويه الماضي التاريخي للجزائر لإيجاد مبرر للاستعمار الفرنسي في الجزائر.
- التركيز على ما قبل التاريخ والتاريخ الروماني في الجزائر، وإهمال تاريخها العربي الإسلامي.
- تجاهل المصادر العربية لتاريخ الجزائر.

وهكذا، فإن النتيجة العملية لهذه الملاحظات الثلاثة هي وجود تعريف يقلل من أهمية تاريخ الجزائر عبر العصور التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠.

٣/٣-اعتماد المؤرخين الفرنسين على مناهج أوروبية في كتابة تاريخ الجزائر

اعتمد المؤرخون الفرنسيون في دراسة قضايا تاريخ الجزائر مناهج البحث والتقييم، وهي مناهج أوروبية حديثة وضعت لكتابة التاريخ الأوروبي، وهذا يجانب الحقيقة التاريخية لأن مراحل التاريخ الأوروبي تختلف جذريا عن مراحل تاريخ الجزائر. وعلى خطوات هذه المناهج الحديثة في ظاهرها، تناولت الكتابات الفرنسية تاريخ الجزائر مطبوعة بهذا الطابع الذي يحكم عليها فالقواعد التي يقع الاحتكام إليها في الدراسات التاريخية عن الجزائر هي قواعد استنبطت من وقائع التاريخ الأوروبي، تجعل من يتناول تاريخ الجزائر من وجهة نظر فرنسية، يعمد إلى الحكم على تاريخ الجزائر بالنسبة لتاريخ فرنسا، ولا شك أن تحكيم مثل هذا النسبية المفرطة، ومثل هذه المقاربة المقارنة غير الواردة لا يمكن إلا أن يعطي نتائج مغلوطة من الناحية العلمية والموضوعية.

استغل مؤرخون فرنسيون وجود الاستعمار الروماني في الماضي التاريخي للجزائر، فحاولوا إيجاد رابطة بينه وبين الاستعمار الفرنسي في تاريخ الجزائر الحديث، وأن يتجاوزا المدة الزمنية على مدى أربعة عشر قرنا وصولا إلى نتيجة، وهي أن الوضع الطبيعي للجزائر هو وجودها في نطاق السيطرة الأوروبية، أي تأكيد المؤرخين الفرنسيين على حتمية تبعية الجزائر لفرنسا الاستعمارية. وتشير المصادر المتوفرة عن تاريخ الجزائر الثقافي قبل سنة ١٨٣٠ أن الحياة الثقافية ازدهرت في البلاد، وإن كانت فقيرة من حيث المؤلفات العلمية، إلا أنها مع ذلك تظل ثقافة جزائرية وطنية أصيلة، ولم ينقصها سوى التفتح والاستيعاب، ويرجع هذا النقص إلى تأثر الجزائر بحالة الجمود والتقليد التي عرفها العالم الإسلامي، والتأخر عن مسايرة النهضة الحديثة والتكيف معها، على أن رصيد الثقافة الجزائرية الوطنية يتجلى في أنها كانت تستمد قوتها من التراث المادي والثقافي وتستخدم اللغة العربية للتعبير عن الهوية الوطنية[٣٤].

كان سقوط الدولة الجزائرية الحديثة في ٥ جويلية ١٨٣٠ بداية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في القضاء على التراث الثقافي الجزائري، فلم تكتف سلطات الاحتلال الفرنسي بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه، وطمس شخصيته العربية الإسلامية، بل استهدفت تخريب عقله، وكان التعليم العربي الهدف الرئيسي في هذه السياسة عن طريق إغلاق المساجد والمدارس القرآنية التي كانت تعلم اللغة العربية، وهدم الزوايا التي كانت منطلقا للمقاومة الشعبية ومراكز للتربية والتعليم وتنظيم المقاومة الوطنية[٣٥]، وبعد تدجين بعض الزوايا التي سلمت من التخريب جعلتها تدين بالولاء لفرنسا، وحصرت نشاطها في تحفيظ القرآن الكريم، وهذا ما اعترف به أحد المستشرقين الفرنسيين بقوله: "إن المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلاميذ عن ظهر قلب، أما المدارس التي يستطيع التلميذ أن يتعلم فيها موادا أخرى، فعددها محصور جدًا، ويبدو أن هذا العدد يتناقص باستمرار"[٣٦]. وهذا الاعتراف يدل على خطر السياسة الفرنسية في تجفيف المنابع التي يتغذى منها التعليم العربي في الجزائر، وحملت هذه السياسة كذلك أبعادًا خطيرة، منها تشويه الصورة الراسخة عن ماضي الدولة الجزائرية قبل الاحتلال، وإخماد روح الاعتزاز لدى الإنسان الجزائري بقيمته ومبادئه.

تولت المدارس الفرنسية تلقين الأطفال الجزائريين عادات دخيلة عليهم في التفكير والسلوك، وقد اعترف جورج هاردي، وهو أحد المنظرين لهذا النوع من التعليم في المستعمرات الفرنسية في إفريقيا قائلا: "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وإخلاصا في خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نفتح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا فالمقصود هو أن نفتح لهم المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد"[٣٧]. يبدو من تصريح هذا المنظر الاستعماري، أن سلطات بلاده استهدفت فرنسة المجتمع الجزائري عن طريق التعليم بحكم عدائها الشديد لتراث الأمة الجزائرية، ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد أن فرنسا كانت حريصة على حرمان أبناء الجزائر من الحق الطبيعي في التعليم تحت ضغط المستوطنين الذين كانوا يتحكمون في ميزانية الجزائر، وخاصةً ما يتعلق بالتعليم بموجب الاستقلال المالي والإداري الذي منحته لهم فرنسا في الجزائر[٣٨].

وكان هذا الحرص بحجة أن تحسين المستوى التعليمي لدى الجزائريين، حتى ولو حصل عن طريق اللغة الفرنسية، قد يؤدي إلى المطالبة بالتحرر السياسي، لذلك انحصر التعليم في الأقلية الأوروبية، بينما فرضت قيودا على تعليم الجزائريين، ويقول هاردي في هذا الصدد: "إن التعليم الفرنسي الخاص بالجزائريين يضمن مبادئ أساسية كالحرص على مراقبة التعليم من أن يتحول إلى أداة يستغلها المشاغبون لإحداث الاضطرابات في المجتمع"[٣٩]. كما أن السلطات الفرنسية أدخلت التعليم التأهيلي في الجزائر، وكان الهدف الأساسي من هذا التعليم هو تكوين نخبة جزائرية تدين بالولاء المطلق لفرنسا عن طريق

فصل هذه النخبة عن واقع الشعب الجزائري، ودفعها إلى إنكار وجود مقومات الأمة الجزائرية والدعاية للأطروحة القائلة بأن الثقافة تنحصر في الفرنسية، وأن تاريخ الجزائر بدأ من سنة ١٨٣٠[٤٠].

يتجلى التضليل الفرنسي في طريقة تدريس التاريخ في المدارس في الجزائر، فكلمة العرب لم ترد في الكتب المقررة في المرحلة الابتدائية سوى مرة واحدة، ولم يبق من التاريخ العربي المجيد في هذه الكتب سوى تعبير: "وأن العرب انهزموا في بواتيي على يد شارل مارتل[٤١]. وركزت هذه الكتب على غرس مقولة "أسلافنا هم الغاليون[٤٢]. ومن النماذج العملية في نظرة المؤرخين الفرنسيين في تشويه حقائق تاريخ الجزائر، يمكن تقديم ما كتبه على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ ستيفان غزيل الذي لم يتردد في التأكيد على أن "الجزائر هي جزء اقتطع من إفريقيا الشمالية"[٤٣]. ولم يتأخر المؤرخ وليام مارسي في ترديد صدى فكرة ستيفان غزيل، عندما كتب مشيرا إلى الفتح الإسلامي وإلى العهد التركي في الجزائر: "...في كلتا الحالتين، غزا المشرق هذا الجزء من المغرب"[٤٤].

وألف قاليبرت كتابه بعنوان البلاد الجزائرية القديمة في ٦٣٩ صفحة، فمن بداية الكتاب حتى صفحة ٢٤٩، وصف الجزائر وتاريخها منذ العصور القديمة حتى سنة ١٨٣٠. أما باقي الكتاب، فحصره بالتأريخ للاحتلال الفرنسي، كما أنه أخلط في تأليف كتابه بين النزعة الخيالية في سرد الأخبار الممزوجة بالأساطير، وعدم تمييزها عن التاريخ العلمي[٤٥]. كما أن محتوى كتاب المؤرخ العسكري الفرنسي الجنرال فور بيغيت، يتضمن معلومات تجعل القارئ ينفر من مطالعته، فلا يجد أمامه سوى القسوة والانقلابات المتكررة والحروب التي لا تنتهي عبر تاريخ الجزائر وسيطرة القوي على الضعيف، ولا يجد في كتابه ذكرا للتاريخ والحضارة[٤٦]، أما الكاتب دوبوا فونتانيل، فقد تعرض بإيجاز لعدة مظاهر من الحياة الجزائرية قبل سنة ١٨٣٠ جاءت في محتوى الجزء الرابع من كتابه[٤٧]. وهكذا تحكمت هذه العوامل الثلاثة في توجيه كتابات المؤرخين الفرنسيين توجيها مغلوطا في نظرتهم إلى تاريخ الجزائر، وجعلتها تساهم عن قصد في تشويه تاريخ الجزائر عبر العصور، وخاصة بعد احتلال الجزائر.

خَاتِمَةٌ

يمكن تلخيص التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر من خلال نظرة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر فيما يلي:

١. أن منطلقات التطرف الفكري في أطروحة مدرسة التاريخ الاستعماري تجاه الجزائر قامت على موقف سياسي متطرف، استخدم فيه المؤرخون الفرنسيون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. وتجلى في كتابات لويس رين والأب دان في العهد العثماني وبروسبير أونفونتان وألكسي دي طوكفيل بداية الاحتلال.

٢. ربط المؤرخون الفرنسيون الاستعمار الروماني للجزائر بالاستعمار الفرنسي بقصد تشويه تاريخ الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل صاحب أطروحة: "الجزائر أرض فراغ"، ويردد المؤرخ وليم مارسي صدى هذه الأطروحة مُشيرًا إلى الفتح العربي الإسلامي وإلى العهد التركي.

٣. نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ، وهذه لنقطة وإن كانت ايجابية من منظور البحث الحديث، إلا أنهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية فأصبحت وكأنها ظاهرة غير علمية في هدفها.

٤. إهمالهم للشعب الجزائري في تناولهم لتاريخ الجزائر، فكتبوا عن الجزائر كأرض فراغ، وغاز جديد يطرد غاز قديم من الفينيقيين حتى الفرنسيين، وليس هناك في نظرهم أمة جزائرية أو كيان جزائري، وإنما هناك قبائل متنافرة تخوض حروبا مستمرة، ولا تخضعها إلا القوة كالرومان والأتراك والفرنسيين. ولم يطبقوا هذه النظرية على عهدهم الذي يبدأ من سنة ١٨٣٠، ولكن على جميع العهود التاريخية الجزائر وتبريرا لوجودهم.

٥. كان المؤرخين الفرنسيون أصوات السلطة العسكرية في بداية الاحتلال، وهذه التبعية، أعمتهم عن الحقيقة وجعلت أعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد.

٦. وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والإداري والعسكري، كما فعل دي نوفو بالنسبة للطرق الصوفية للسيطرة عليها، وبذلك أهمل تاريخ الجزائريين السياسي والثقافي والاجتماعي.

٧. اهتم الفرنسيون باحتلال الجزائر، وكتبوا عن رجاله وسياستهم وأثر ذلك على الجزائر وعلى الهجرات الأوروبية. ويأتي في المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان في الجزائر، وتاريخ المسيحية فيها، وأخيرا تاريخ البيزنطيين فيها، أما تاريخ العرب المسلمين، وهو تاريخ العهد الذي تحرر فيه السكان، ويديرون شؤونهم بأنفسهم، فقد ظل عندهم عهدًا غامضًا حسب تعبير غوتي. وكذلك فعلوا مع العهد العثماني في الجزائر، وهو العهد الذي قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيًا وسياسيًا.

الاحالات المرجعية:

(1) P. Claussolles, L'Algérie pittoresque ou histoire de la régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, V2, Paris 1843, p 46.
(2) R. Montran, Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie, Annales de l'Afrique de Nord, Paris 1962, p 243.
(٣) عزيز سامح التر، **الترك في إفريقية الشمالية**، اسطنبول، ١٩٣٧، ص ٣٢٥.
(4) R. Montran, Op-cit, p 248.
(5) Devoulx (A), (Un exploit des Algériens en 1802), in revue africaine, Paris 1865, p 157.
(6) Rinn (L), Bulletin de la société de géographie d'Alger, 1903, p 72.
(7) Blavin, La condition de la vie des français dans la Régence d'Alger, Alger 1899, p 361.
(8) Godefron, Gornelin et la Motte (les pères), Etats des royaumes de Barbarie, Tripoli, Tunis et Alger, Rouen 1731, p 351.
(9) Dan, Histoire de Barbarie et de ses corsaires, le royaume et les villes d'Alger, de Tunis et de Salé de Tripoli, Paris 1637, p 85.
(10) H. Grammont (de), Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742), Paris 1890, p 69.
(11) Dan, Op-cit, p 92.
(12) P. Clausolles, Op-cit, p 248.
(13) Ach. Filias, L'Algérie ancienne et nouvelle, Paris 1875, p 194.
(14) H. Garot Histoire générale de l'Algérie, Alger 1910, p 258.
(15) Vinchon (Baron de), Histoire générale de l'Algérie et des autres états barbaresques jusqu'à nos jours, Paris 1839, Alger 1910, p 354.
(16) Ch. Farine Deux pirates au XVIe siècle, histoire de Barberousse, Paris 1869, p 246.
(17) Faure Biguet, Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane, Paris 1905, p 340.
(١٨) ألكسيس دي طوكفيل، **نصوص عن الجزائر**، تر/ إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٣٣.
(19) Prosper Enfantin, Colonisation de l'Algérie, Librairie Bertrand, Paris, 1843, pp 3-9.
(20) Ibid, p 7.
(٢١) ألكسيس دي طوكفيل، مصدر سابق، ص ٣٤.
(٢٢) نفس المصدر، ص ١٩-٢٠.
(٢٣) نفسه، ص ٤١-٤٢.
(٢٤) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج٥، ص ٩٢-١١٤.
(٢٥) أبو لقاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩، ص ١٧-١٨.
(٢٦) ألكسيس دي طوكفيل، مصدر سابق، ص ٦١.(١)
(27) Prosper Enfantin, Op-cit, p 11.
(28) Ibid, pp 130-132.
(29) ألكسيس دي طوكفيل، مصدر سابق، ص ٤٨.
(30) Stéphane Gsell, Histoire de l'Algérie, Paris 1931, p 549.
(٣١) رابح تركي، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٥، ص ٩٣.
(٣٢) نفس المرجع، ص ١٠٩.
(33) Georges Hardy, Une conquête morale : L'enseignement en AOF, Albin Colin, Paris 1931, p 25.
(٣٤) يحيى بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣، ص ٧٢.
(٣٥) مولود قاسم نايت بلقاسم، (**العربية والتعليم العالي وأساليب النهوض بها في الجزائر**)، مجلة الأصالة، السنة ١٨، عدد ١٠١، الجزائر ١٩٨٨، ص ١٩.
(36) Georges Hardy, Op-cit, p 25.
(37) Ibidem.
(٣٨) رابح تركي، المرجع السابق، ص ٩٣.
(39) Georges Hardy, Op-Cit, p 40.
(٤٠) مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص ٢١.
(٤١) نفس المرجع، ص ٣٣.
(٤٢) نفسه.
(43) Stéphane Gsell, op-cit, p 561.
(44) William Marçais, Histoire et historiens d'Algérie, Paris 1931, p 139.
(45) Dubois Fontanelle, Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours, 8 t, V1, Paris 1775, p 157.
(46) Faure-Biguet Op-cit, p 415.
(47) Dubois Fontanelle, Op-cit, p 279.